كتب

يمكن قراءة كتاب المؤرّخ الفرنسي الأخير، «كرونوس: الغرب في صراعه مع الزمن» (منشورات غاليمار)، بمثابة حكاية يسرد فيها سلسلة التغيّرات والانزياحات التي عرفها المفهوم في الرؤية الغربية. عملٌ يُظهر تأثّر هذه الرؤية بالمسيحية حتى بدايات عصر الحداثة

فرانسوا هارتوغ بحثٌ في طبقات مفهوم متغيّر

روايةٌ غربيّة اسمُها الزمن

نجم الدين خلف الله

يعني مصطلحُ «كرونوس» الزّمنَ، هذا الكائنَ الحاضر في كلّ مكان والذي لا يمكن لأحدٍ أن يتفاداه، سواءً في ثنايا وعيه العميق أو في مُعاناته اليوميّة الظاهرة. ورغم هذه المحايثة المُطلَقة، لا يستطيع أحدٌ إدراك كُنْهه للإفصاح عن ماهيّته. بيد أنَّ الإنسانَ لم يتخلَّ، عبر تاريخه الطويل، عن محاولات فهم هذه الكينونة والسيطرة عليها، بدءاً بتقسيمها وضَبطها، مروراً بمعايشتها، وصولاً إلى التّنظير لها. فقد تعدّدت الاستراتيجيات والخِطَط للتوصّل إلى الإمساك بقوانين الزمن وإدراك ماهيّته منذ بدايات الإنسان العاقل الأوّل إلى يومنا هذا. وقد عبّر القديس أوغسطينوس (354-430) عن هذه المُفارقة الكبرى في معادلته القائلة: «طالما لم يُسأَل الإنسانُ عن الزمن، فهو يعلم كُنهه ويعرف حقيقَتَه. لكنْ، ما إنْ يُطرح عليه السؤال حتّى يعجز عن الإجابة». يحمل مفهوم الزمن مفارقة الوعي بالشيء والعجز عن التنظير له، مفارقة تُحمُّل آثاره دون القدرة على وصفها.

وهذه هي الإشكالية التي يطرحها المؤرّخ الفرنسي فرنسوا هارتوغ (مِن مواليد 1946)، في كتابه الجديد «كرونوس: الغرب في صراعه مع الزمن»، الصادر منذ أيام عن «دار غاليمار». تعالج هذه المُحاولة الفلسفيّة نظام الزّمن والعهود المتعاقبة التي طَرَأت على طريقة تَصوّره عَبر الثّقافات البشريّة من أجل التّعبير عن حقيقته. وعلى غرار المُفكّر جورج لويس بوفون (1707-1788)، الذي أقرّ بوجود «أطوار» شهدها تصوّرُنا لمفهوم «الطبيعة»، سعى المؤرخ الفرنسي إلى استكشاف تلك التي مرّ بها مفهوم الزمن لدى مفكّري الغرب. ولذلك ارتحل يجوس خلال الطبقات المتراكمة، بدْءاً من العهد الإغريقيّ الذي صيغ فيه مفهوم كرونوس إلى حدود عصر الأنوار، ومنه إلى أيّام العولمة التي نعيشها منذ عقود.

وعندما وصف إعداده كتابَه، شبّه هارتوغ عملَه بأنّه كان بمثابة كلمات مُجمّدة في الذهن، كما تُجمّد المواد في بيت الثلج، فإذا به يُفكّكها من ذلك التصلّب وينزع عنها جمودها فَيُحيلها إلى كلماتٍ جارية مقروءة. وهذا عينه فعْل الزمن وأثره اللذان يصفهما الكتاب. وفيه يقارن الكاتب ما كان لاحَظه عن سيرورة الزمن وسَرَيَانه عبر نهر التاريخ، في كُتبه السابقة، وبين ما طرأ على هذا الجَرَيان إبّان أزمة كورونا، والتي ربّما دفعتْه إلى إنضاج تفكيره.

ولا بد من التذكير، بدءاً، بأنّ هذا الكتاب يتنزّل ضمن رباعيّة - امتدّت على عقدَيْن - خصَّصها هارتوغ لتحليل التعقيدات الخفيّة لمفهوم الزمن، واستهلّها بـ«أنظمة التاريخانيّة (2003)، تلاه «قُدماء، مُحدَثون، ومتوحّشون» (2005)، ثم «الإيمان بالتاريخ» (2013). والآن يأتي هذا الكتاب تتويجاً للرباعية، متناولاً النظام التاريخي الأوروبّي الذي أُرْسِيَ منذ ثمانية عشر قرناً بعد حلول المسيحيّة مرجعيّةً في النّظر والحَركة والتقييم.

هذا، وقد جَعل الكاتب لمؤلَّفه عنواناً فرعيّاً، هو «الغَرب في صراعه مع الزمن»، ما يشي بوجود توتّراتٍ دائمة بين الوعي الفلسفي التاريخيّ الذي عبّرت عنه المسيحيّة ثم الفلسفات الغربيّة، وبين حركة هذه الكينونة الذاتيّة، ذات الآثار الموضوعيّة الثقيلة، والتي نُسمّيها كرونوس أو الزّمن. ورغم صعوبة المُقارنة بين المجالَيْن الثقافيّين، لا يَسعُ إهمال ما صاغه الكاتب توفيق الحكيم (1898-1987) في «أهل الكهف» (كتبه 1929عام ونُشر في 1933) وغيرها من المسرحيّات التي حلّل فيها آثار الزّمن تحليلاً فنيّاً.

وقد انبَرى هارتوغ، بجرأة ووضوح، إلى التنظير للعلاقة بين التصوّر الذي يحمله الأفراد والجماعات عن الزمن وبين ما نُقل في السرديّات الماضية عنه. فَطوَّر مفهوم «نظام التاريخانية»، الذي يعني به طريقة تصوّر مجتمع ما للزمن وذاكرة ذلك التصور وآثاره على الحركة اليوميّة في التاريخ. ومن ذلك أنّه اشتغل على القطيعة الكبرى التي ضربت هذا التصوّر. ففي الماضي، كان يُنظَر إلى حركة التاريخ كخطٍّ تَصاعديّ، مَحكوم بمبدأ التقدّم، وخصوصاً في فلسفة هيغل (1770-1831) المثاليّة. وهي الفكرة عينها التي تأثّر بها، في العالم العربي، بعضُ مُفكّري النّهضة، مثل شبلي شميّل (1850-1917)، وبنسبةٍ أقلّ، فرح أنطون (1874-1922).

أمّا في وقتنا الراهن، فإنّ الزّمن الحاضر يجثم على الوعي ويغمره ويشدّه إلى مشاغل المعيش اليومي الثقيلة، الآن وهنا، مع شِبه هوَسٍ بقضايا الذاكرة لتَصفية الحساب معها، إمّا بإجراء «المُصالحات» و«المُراجعات»، وإما تَمجيداً وتنديداً. ولا يمكننا إلّا أن نُشير إلى الرّفض القاطع لقيمة «التّوبة وطلب الصّفح»، فيما يتعلّق بذاكرة حَرب الجزائر وأهوالها، والتي يرفض المؤرّخ بنجامان ستورا، في مقترحاته العشرين التي وضعها أخيراً بين يديّ الرئيس الفرنسي، أن تعبّر عنها فرنسا.

في هذا الكتاب، يُطلق صاحبُ «بَداهة التّاريخ» (2005) عبارة «الراهنيّة الأبوكالبتيّة» على تملّك الفكر المسيحي لمفهوم «الزّمن»، عبر اقتباس مُصطلح Kairos (كايروس) الذي يعني: تجسّد المسيح في التاريخ وظهوره فيه إيذاناً بفَتحه على النهاية، وما سيأتي بعد ظهوره مجرّد انحدار نَحو الهاوية. وكذلك مصطلح «Krisis» الذي يدلّ، من بين ما يدلّ، على مَقدم يوم الحساب ونهاية الزمن البشريّ. وعليه يصبح الماضي مجرّد مستودعٍ للعِبَر والذكريات والأمثلة التي لا بدّ منَ الاقتداء بها وإعادة استنساخها في المستقبل. إلّا أنّ الغرب، بولوج طَور الحداثة، لم يعد مسيحيّاً إثر قطْعه مع ذلك التصوّر التقليدي. وعندما تجاوز الحَداثة، لم يعد يعرف مصيرَه وافتقد كلّ بعدٍ ماورائيّ للتاريخ. وهذا عين ما ذهب إليه المؤرّخ العربي ابن خلدون من اعتبار التاريخ مجالاً للتأمّل والتحقيق، ولذلك سمّى كتابه الشهير «كتاب العِبر».

كما يدعو هارتوغ إلى أن يظلّ الغرب إنسانيّاً وأن يُسائل، باستمرار، مَظاهر الإنسانية لديه، وأن يستفيد من كايروس (اللحظة الراهنة) حتى يُبعد كريزيس (اليوم الآخر وأهواله) ويُعيد إلى كرونوس (الزمن) شيئاً من الثبات والديمومية.

وهكذا، يُمكن أن نعدّ هذا الكتاب بمثابة رواية عن الزمن، يسرد فيها المؤرّخ سلسلة التحوّلات التي شهدها مفهوم الزمن في الرؤية الغربية المسيحيّة، منذ انبثاقها إلى يوم الناس هذا. وقد صاغ هذه السرديّة ليس بشكلٍ علميٍّ تحليليّ فحسب، وإنّما أدمَجَ ذاته وتغلغل طيَّ تاريخه الشخصي «بحثاً عن الزمن الضائع»، حتّى يفهمَ ما حصل، ولماذا صرنا إلى ما صِرنا إليه.

ولعلّه من المشروع أن نطبّق هذا التصوّر على مفهوم الزمن في الثقافة العربية-الإسلاميّة من أجل تفكيكه فلسفيّاً وأنثروبولوجيّاً، على أن نبدأ بفكرة «الدهر»، التي سادَت في العصر الجاهلي، ثم ننتقل إلى كيفيات استعادة الإسلام لهذا المفهوم، ولا سيما في القرآن، حيث رُبط الزمان بالتجلّي الإلهي الذي يستعصي على كل زمنيّةٍ باعتباره أزليّاً. وبعد ذلك، يحقّ استخراج تأثير هذا المفهوم فيما كتبَه كبارُ المؤرّخين عندنا، مثل الطبري والمسعوديّ وابن خلدون. وتجدر بعد ذلك دراسةُ ما شهده عصر النهضة من عميق التحويرات على هذا المفهوم، وتأثُّر مُفكريه بمبدأ التقدّم والتمدّن. ولا شكّ أنّها مفاهيم تجاوزتها الحداثة بفعل العولمة الراهنة التي يعيشها العالَم العربيّ، ما يؤكّد وجاهةَ هذا المبحث ومشروعيّته، شريطة ألّا نكون فيه مقلّدين ولا مجرّد مترجمين، بل واقفين في وجه الزمن نَستجلي ألغازَه ونسبر أغواره.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

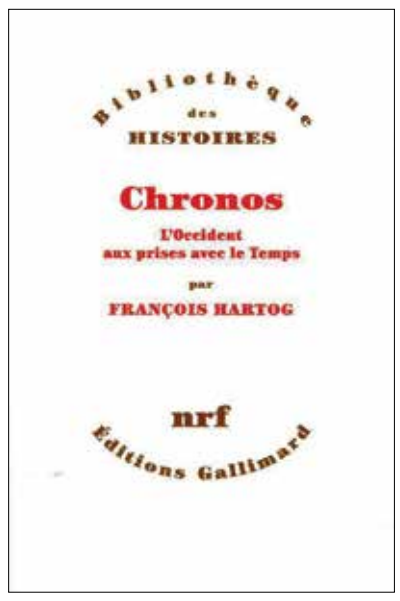

مع التاريخ

يعدّ فرانسوا هارتوغ (1946) واحداً من أبرز المؤرّخين على الساحة الفرنسية اليوم. وبينما كانت أعماله الأولى تتوقّف لدى تواريخ وحقب معيّنة، كما هو حال كتابه «ذاكرة عوليس: سرديّات حول الحدود في اليونان القديمة» (1996)، فإنه يخصّص الجزء الأكبر من أبحاثه في السنوات الأخيرة لمساءلة الاشتغال التاريخي، ولإعادة النظر في عدد من مفاهيمه الأساسية، مثل الحقبة، والعصر، والزمن.

يسرد المؤرّخ التحوّلات التي شهدها مفهوم الزمن غربياً

أطروحاتٌ يمكن تطبيقها، دون تقليد، في الثقافة العربية

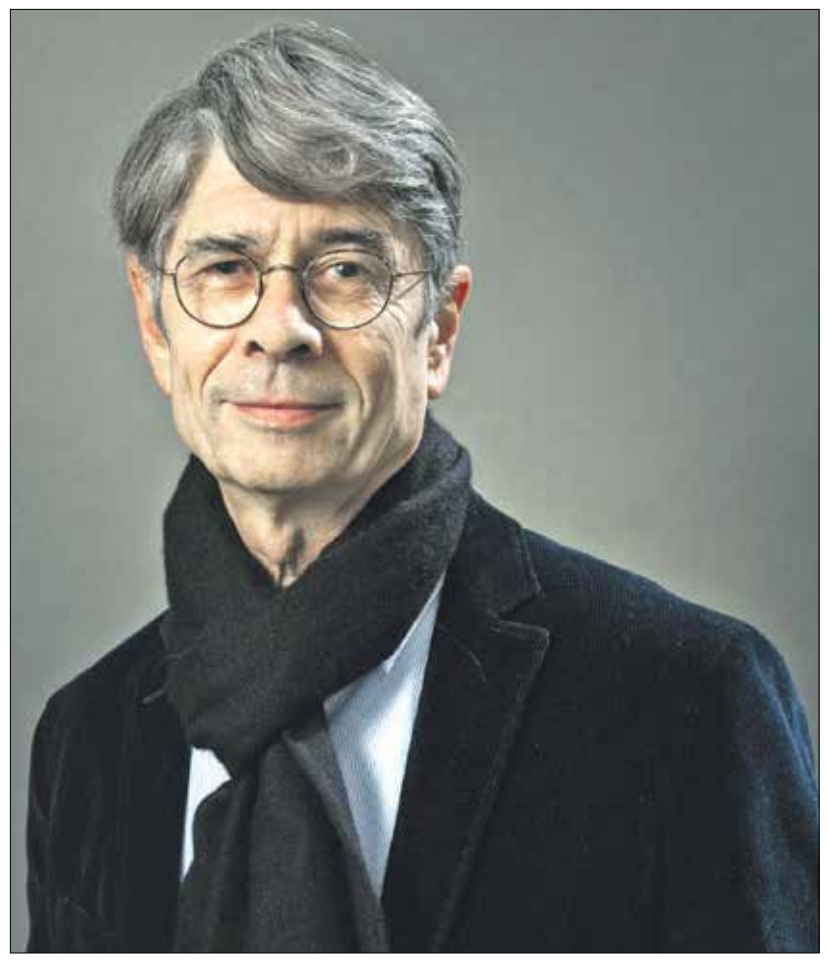

فرانسوا هارتوغ (منشورات «غاليمار»، تصوير فرانشيسكا مانتوفاني)

نظرة أولى

امتدّ الجدل الذي عاشته أوروبا خلال القرن السابع عشر حول علاقة الدين بالدولة إلى بقية العالم ولا يزال مفتوحاً، حيث يشارك فيه كتابُ «**تاريخٌ موجز للعلمانية**» الذي صدرت نسخته العربية عن سلسلة «ترجمان» في «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» بترجمة مصطفى منادي إدريسي. يقدّم العمل وجهة نظر بديلة، مجادلاً بأن الفكر العلماني يعتمد على الافتراضات المسيحية، ويرى أن العلمانية لا تمثل نهاية المسيحية، بل يجب النظر إليها كونها التعبير الأحدث عن الديانة المسيحية، وعلى أنها الأخلاق المسيحية مفصولةً عن عقيدتها.

مع تطوّر النظرة الفلسفية لـ«المجنون» وموضعته كآخر في المجتمع، تتراكم الدارسات حول تكييف هذه الطروحات في حقول مختلفة، ومنها كتاب «**خطاب الجنون في التراث العربي والغربي: مقاربات لغوية وثقافية**» الذي صدر حديثاً عن «مؤسسة آفاق» ويضمّ مجموعة دراسات بتنسيق وتحرير الباحثين هشام فتح وحسين آيت مبارك. يستحضر العمل نماذج من خطابات الجنون في الآداب والفنون وتلقيها، مثل قيس بن الملوح وجميل بثينة وجبران خليل جبران في الثقافة العربية، والفيلسوف الهولندي إيراسموس، والعاشقتين ديدمونة وأوفيليا من الثقافة الغربية.

عن دار «كنوز المعرفة» في عمّان صدر حديثاً كتاب «**الكائن البلاغي: اللغة والعقل والاستطاعة في كتاب البيان والتبيين للجاحظ**»، للباحث المغربي مصطفى رجوان. يعود المؤلّف إلى كتاب الجاحظ الشهير بغرض البحث فيه عن بنية العقل البلاغي العربي، والنظر في راهنيته ضمن البلاغة الجديدة. لا يرى الكاتب البلاغة بوصفها ترفاً قولياً أو تزيينياً، بل باعتبارها الحقل البحثي الوحيد القادر على تنظيم العلاقة بين الأنا والآخر. وهو يذكّر بتحديد الجاحظ ثلاث خصائص تجعل الإنسان كائناً بلاغيّاً: المنطق (أو اللغة)، والعقل، والاستطاعة.

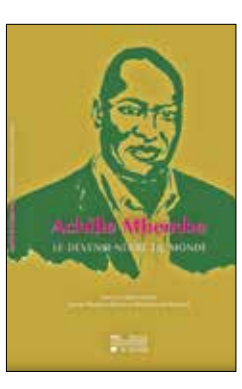

في الكتاب الجماعي «**أشيل مبيمبي: العالم في صيرورته الزنجية**»، الصادر حديثاً بالفرنسية عن «مطبوعات لوفان الجامعية» في بلجيكا، تحاول مجموعة من الباحثين إظهار كيفية افتقار وتجاهل التقليد النقدي الغربي إلى واحد من مصادر الفكر، وكذلك الفعل، الأساسية. الحديث هنا عن المدرسة النقدية الأفريقية التي تتضمن أعمال مفكرين أفريقيين، أو من أصول أفريقية، كتبوا انطلاقاً من تجارب الكولونيالية. من المشاركين في الكتاب تييري أموغو، وفيرونيك براغار، وإيمانويل ديبروين، وغاليا جلول، وتوماس بيريّو، وبيير جوزف لوران.

عن «الدار العربية للموسوعات»، صدر حديثاً كتاب «**تاريخ التجسُّس عند العرب**» للباحث العراقي قيس كاظم الجنابي. يُقدّم العمل إحاطة تاريخية ومفاهيمية بموضوع التجسّس في البلاد العربية بالعودة إلى بدايات الدولة الإسلامية، في محاولةٍ لإبراز «المقدّمات المؤسّسية لنظام التجسّس» بوصفه «صورةً من صوَر الاضطهاد ووسيلة من وسائل سيطرة السلطان». يتضمّن الكتاب تمهيداً وأربعة أبواب؛ هي: «الأساليب والأنواع»، و«تاريخ التجسّس في العصرَين الإسلامي والأموي»، و«تاريخ التجسّس في العصر العباسي»، و«في تاريخ وثقافة التجسّس».

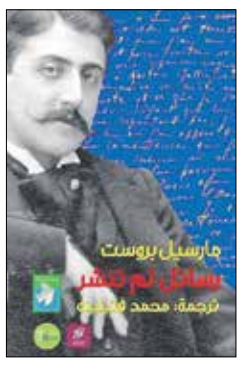

«**مارسل بروست: رسائل لم تُنشَر**»، عنوان كتاب يصدر قريباً عن منشورات «خطوط وظلال» و«دار ضفّة»، بترجمة الجزائري محمّد فتيلينه. يضمّ الكتاب رسائل تبادلها صاحب «البحث عن الزمن المفقود» مع الكاتب والناقد كامي فيتّار، بين عامي 1920 و1922. وفيتار، الذي بات اليوم مغموراً حتى في فرنسا، من الذين تناولوا بالنقد العديد من مؤلّفي بدايات القرن الماضي في فرنسا، مثل الشاعر بول فاليري، والكاتب شارل بيغي. كما أنّه وقّع نصوصاً حول تجربة بروست، وخصوصاً مطوّلته الروائية التي قسّمها إلى جزأين، أوّل حسّي، وثان ميتافيزيقي.

صدرت حديثاً عن «دار الشروق» النسخة العربية من كتاب «**ثورة 1919 في الأدب والسينما**» للباحثة المصرية دينا حشمت، وفيه تُقدّم تحليلاً لمجموعة من الأعمال الأدبية والفنية التي تناولت سلسلة الاحتجاجات الشعبية ضدّ البريطانيّين بقيادة سعد زغلول (حزب الوفد) مطلع القرن الماضي، وهي أعمال تقول إنّها رسّخت بمجملها تلك اللحظة بوصفها «واحدة من أهمّ لحظات الانتصار الوطني»، موضحةً أثر الانتماء الطبقي للكتّاب والمخرجين على سردياتهم حولها. كانت النسخة الإنكليزية من الكتاب قد صدرت العام الماضي عن «منشورات جامعة إدنبرة».

«**عنف المقدّس في الأساطير العراقية**» عنوان الكتاب الصادر حديثاً عن «دار المدى» للباحث العراقي ناجي المعموري، والذي يذهب فيه إلى أنّ تاريخ العراق، منذ أقدم العصور، يتّسم بمبالغة في العنف. انطلاقاً من ذلك، يرصد العمل تمثّلات العنف الدموي في الأساطير القديمة؛ من بينها ملحمة جلجامش التي تقدّم تفاصيل غزيرة عن الاستبداد الذي مارسه. يُشير المعموري إلى مفارقة تتمثّل في كون آلهة العراق القديم، وخصوصاً «البانثيون العراقي»، شكّلت مصدراً للحروب والتدمير والتعسّف والعنف، بينما يُفترض أن يكون المقدّس عاملاً للأمن.